

ابن رشد الفيلسوف: السياق والامتداد

فؤاد بن أحمد
باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

ابن رشد الفيلسوف: السياق والامتداد*

* قراءة في كتاب محمد بن شريفة، ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية.

- أُلقيت الصيغة الأولى لهذا العرض ضمن فعاليات اليوم الدراسي قراءات في الأعمال الرشدية الصادرة في الألفية الثالثة من تنظيم الجمعية المغربية للبحث في الفلسفة الإسلامية (الرباط، 2 نونبر 2013).

الملخص التنفيذي:

لم تكن الكتابة والتأليف، هذه المرة، في الفلسفة الرشدية في جوانبها المنطقية أو الميتافيزيقية أو الطبيعية أو الأخلاقية... عن طريق تأويل وتفسير نصوصها ومتونها، بل إنها كتابة تستند إلى الإنصات إلى الوثائق والشواهد والشهادات قصد إنشاء صورة تاريخية "حقيقية" عن مسارات ابن رشد. يتحصل عن هذا، أنّ صورة فيلسوف قرطبة وعلاقاته بعصره ومحنته وتلامذته وتأثيراته لم تأخذ نصيبها الأوفى من التدقيق والفحص العلمي حتى اليوم. بهذا الاعتبار، جاء كتاب "ابن رشد الحفيد دراسة وثائقية" (1999) للباحثة والمحقق محمد بن شريفة ليسدّ ثغرة من ثغرات مصادر الفلسفة الرشدية. ومن ثمة، تصدّى الباحث المغربي فؤاد بن أحمد مهمة تقريب محتويات الكتاب ومضامينه بغية بيان أنّ القول الرشدي وامتداداته ما زال تربة خصبة للمحققين والباحثين. من هنا، عرّج الباحث فؤاد بن أحمد على بعض خصائص وسمات هذه السيرة الرشدية لأهميتها وقيمتها الفلسفية والتاريخية، بل قلّ دورها في محو بعض الأحكام المسبقة التي صارت، للأسف، من مداخل التأليف في الفكر الرشدي.

لقد لفت قارئ المؤلف إلى أمور مهمة من قبيل شرح ابن رشد وابن طلموس لأرجوزة ابن سينا. الأمر الذي يشي بضرورة معاودة النظر في علاقة الأستاذ بتلميذه، أو بالأحرى القول بسكوت الثاني عن الأول. ثم التريث في إصدار الأحكام والأقويل بشأن علاقة ابن رشد بابن تومرت بعد أن تصدر نشرات محقّقة لـ "شرح الحمرانية" و"كيفية دخوله في الأمر العزيز" و"الكشف". إنها نصوص لا شك، سوف تلقي أضواء جديدة على القول الرشدي السياسي والمذهبي.

لننعتف ونقول أيضاً، إنّ جدّة المؤلف "ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية" (1999) تتمثل في إعادة النظر في نكبة ابن رشد التي لطالما خاض فيها الخاضعون بنوع من المبالغة والتحسر. وبالضدّ من ذلك، إنّها محنة لحظية وظرفية، بل والأكثر من ذلك، طالّت الفقهاء والشعراء وأهل الأصول من اتهامهم بتعاطي علوم الأوائل والسير في بحور الأوهام، كما يقول المرسوم الصادر ضدّ أبي الوليد بن رشد. فضلاً عن ذلك، توقف الباحث فؤاد بن أحمد على أمر هو مراجعة خلاصة رينان في مكتوبه: "ابن رشد" بأنّ الفلسفة لم تعد لها قائمة وريادة تُذكر في دُنيا العرب بعد وفاة واضطهاد الشارح الأكبر، وهو قول يعضده كلام "هنري كوبان" حينما قال إنّ العرفان يقود البرهان إلى مثواه الأخير.

وعلى هذا نقول، إنها خلاصة بانسة؛ بعلة أنّ أبا الوليد قد تتلمذ عليه أكثر من أربعين عالماً في شتى العلوم القديمة والمليّة. وهذا الأمر علامة على مدى أثر ابن رشد بعد وفاته. لهذا تقع على الباحثين مسؤولية كبيرة، كما يقول فؤاد بن أحمد، في تعقب هذه التأثيرات في الفقه والبلاغة والمنطق والطب والنحو. هذا الأخير الذي أبدع فيه ابن رشد أيّما إبداع، حتى بلغ بمؤلف "ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية" مبلغاً يقول فيه إنّ ابن رشد قد فاق ابن مضاء القرطبي.

وبكلمة نقول: إنّ كتاب "ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية" (1999) قد قدّم بالفعل صورة عن فيلسوف في التاريخ، وليس خارج التاريخ، عن طريق بيان علاقته بأعلام عصره ومحيطه الاجتماعي والسياسي والمذهبي. إنها صورة تدلّ على تواصل ابن رشد مع معاصريه.

محمد بن شريفة، شيخ المحققين المغاربة اليوم، معروف في أوساط الدارسين داخل المغرب وخارجه بولعه الشديد بالوثائق والمخطوطات. وقد أخرج آثاراً وحقق أعمالاً استخلد في الأرض، نرجو له طول العمر ودوام الصحة. وإلى ذلك، فالرجل معروف بين المشتغلين بالفلسفة الإسلامية بكتابه عن ابن رشد الحفيد: **سيرة وثائقية** الذي صدر في الدار البيضاء عن مطبعة النجاح الجديدة، عام 1999. وأقول إنه الكتاب الثاني المكتوب بالعربية بعد **المتن الرشدي** للراحل جمال الدين العلوي،¹ الذي أخذ بعقول الدارسين في الغرب قبل العالم العربي. لقد غدا الكتاب بسرعة واحداً من الأدبيات بخصوص سيرة ابن رشد، ولعل طبيعته الوثائقية، وهي الهوية التي يعلن عنها عنوانه، هي ما جعل إجماع الدارسين المهتمين بحياة ومحيط ابن رشد يستقر بخصوصه، بحيث لا تجد دراسة في الموضوع إلا وقد وضعت ضمن لائحة مراجعها، بل إن مقالات فرنسية حديثة الصدور ما هي إلا ترجمات مختصرة لمحتويات الكتاب.

لكن الذي يجعلنا نعدّ الكتاب دراسة فلسفية أيضاً، هو أنّ الرجل محبّ لابن رشد ومتعاطف معه في وقت ازداد فيه كارهوه؛ والأهم من ذلك أنّ بن شريفة لا يخفي حبّه. لكنّ حبّه لابن رشد غير محكوم بالتملك على غرار ما حصل لبعض الرشديين؛ حب بن شريفة لابن رشد حب لا عصبية فيه ولا غلبة، حب شريف. هذا الحب في نظرنا هو الذي دفع الرجل في بعض الأحيان إلى الدفاع عن ابن رشد النموذجي في وجه ابن رشد النص. هذا الحب هو الذي جعل بن شريفة لا يقبل لابن رشد أن ينخرط في متاهات المناورات بين العرب والبربر؛ إذ لما قال ابن رشد في **تلخيص كتاب الخطابة**: "إنا نبغض البربر ويبغضوننا"، علّق بن شريفة قائلاً: "سواء أكان مثال ابن رشد يدلّ عن حقيقة أم يعبر عن واقع قلعله كان في غنى عنه".²

هذا الحب أيضاً هو الذي دفع بن شريفة إلى مدّنا بوثائق تظهر ابن رشد ليس محطّ حقد البعض فقط، بل محطّ دفاع وإعجاب وتقدير وثناء ومديح كثيرين من معاصريه ومجايلييه. وزجل ابن قزمان وشهادة ابن طملوس وغيرهما تعفينا من التطويل في هذا الباب. والكتاب في الحقيقة مليء بعبارات وشهادات في الدفاع أو الثناء عن ابن رشد لبعض معاصريه. وهذا "من شأنه أن يجعلنا نعيد النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل عصره منه"³ (وفي هذا السياق، فعندما يقرأ المرء كتاب ابن رشد **طموحات مثقف مسلم** لدومينيك أوفوا

¹ - جمال الدين العلوي، **المتن الرشدي**. مدخل لقراءة جديدة (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1986).

² - ابن رشد الحفيد، **سيرة وثائقية**، ص 255

³ - ابن رشد الحفيد، **سيرة وثائقية**، ص 324

الذي صدر في 1998، أو بعض المواضيع من كتاب "ابن رشد سيرة وفكر"⁴ للراحل الجابري، قد يشعر كأن ابن رشد كان يعيش في وسط ليس يملأه سوى "وحوش" أو "ناكري جميل." ("

يقدم المؤلف كتابه على أنه "إسهام متواضع" بمناسبة سنة ابن رشد، سنة 1998. والحق أن الاشتغال على موضوع سيرة ابن رشد قد شغل بال دارسين كثر، وقد صدرت كتابات كثيرة تعالج سيرة ابن رشد.⁵ والمؤلف نفسه قد انشغل بالموضوع سنوات من قبل، وأخرج دراسات ونصوصاً في ذلك الموضوع،⁶ لكن المناسبة هي التي حملته على "إعداد هذا المجموع الذي يضم بين دفتيه نصوصاً متعددة ومواد مختلفة تنفع في كتابة سيرة مفصلة وموثقة لأبي الوليد التي ما تزال في حاجة إلى البحث والدراسة والكشف والإبانة"⁷ وبالفعل، فقد بذل بن شريفة جهداً كبيراً في تتبع النصوص التي توثق لسيرة ابن رشد، وجمعها من مصادر متعددة ومراجع مختلفة. وبعض هذه النصوص والوثائق يخرج لأول مرة، فيما يعيد نشر البعض الآخر مع خصوصيات وتحقيقات وتعليقات.⁸

وقد صنّف المؤلف هذه النصوص والمواد ضمن مجموعات، واختار لكل مجموعة عنواناً مناسباً، ورتّب مواد كل واحدة بحسب أوليتها أو أهميتها.⁹ لذلك، جاءت محتويات الكتاب على الشكل التالي:

- تقديم

- تعريفات

- تحليلات

كيف دخل ابن رشد في الأمر العزيز؟

⁴ - (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998).

⁵ - Miguel Cruz Hernández, *Abū-l-Walīd Muhammad ibn Rushd (Averroes): Vida, obra, pensamiento, influencia*, 2ª ed (Córdoba: CajaSur Publicaciones, 1997); Roger Arnaldez, *Averroès, un rationaliste en Islam* (Paris: Balland, Le Nadir, 1998); Dominique Urvoey, *Averroès. Les ambitions d'un intellectuel musulman*, (Paris: Flammarion, 1998). ابن Ali Benmakhlouf, *Averroès*, (Paris: Les Belles lettres, 2000).

⁶ - محمد بن شريفة، "نصوص جديدة حول ابن رشد" ضمن ندوة ابن رشد الطبيب والفقيه والفيلسوف (الكويت: منشورات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، 1995) (549-607).

⁷ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 6

⁸ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 6

⁹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 6

قبل المحنة

حول محنة ابن رشد

- شهادات

- إفادات

- تأثيرات

- مثالات

المخطوطات الرشدية ونساخها

المظاهر الأدبية في أعمال ابن رشد

- ملحقات

- خاتمة

- صور خطية لبعض المخطوطات

- عشرة فهارس

هناك مساحة من الطمأنينة والهدوء تخيم على كتاب ابن رشد الحفيد **سيرة وثائقية**، بل هناك مجهود كبير في التقريب والأخذ بيد القارئ. وفي الواقع لا يترك بن شريفة للقارئ فرصة أن يكتشف بنفسه ما يميز الكتاب عن باقي السير التي نشرت في سنة ابن رشد، بل يعلن بنفسه صراحة عن خصوصيات سيرته. ويحصى إحدى عشرة خصوصية لسيرته هذه، نوردها كاملة بإجمال، على أن نقف عند بعضها فقط ببعض من التفصيل.

1- نقف عند حدود السيرة ولا نتجاوزها إلى الغوص في عصر ابن رشد أو في آثاره.

2- نحرص على جمع أقصى قدر ممكن من المادة المتعلقة بحياة ابن رشد وسيرته.

3- نحرص على توثيق المادة حرصاً شديداً، وذلك بنسبة كل قول إلى صاحبه وإرجاع كل مادة إلى مصدرها.

4- لا تترك اسماً أو علماً من الأسماء أو الأعلام الذين يجري ذكرهم دون الإحالة على مواطن تراجعهم أو التعريف بهم.

5- تشتمل على مواد جديدة وعناصر مجهولة في سيرة ابن رشد.

6- تلقي شيئاً من الضوء على نشأة ابن رشد وبدايته.

7- تقدّم تفسيراً تفصيلياً للمحنة غنياً بالمعطيات المختلفة التي تبين خفيها وتحدد حجمها.

8- إنّ هذه السيرة تقدّم لأول مرّة شهادات في الدفاع عن ابن رشد لبعض معاصريه، ومن شأنها أن تجعلنا نعيد النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل عصره منه.

9- إنّ الباحث يجد فيها بعض ما يدفع ما قيل عن إحراق كتب ابن رشد، وذلك بالاستدلال بأسمائها المدونة في كتب التراجم، ونسخها الخطية الباقية التي كتبت في عصره أو في وقت قريب من عصره.¹⁰

10- ممّا تتميز به هذه السيرة أنها تشتمل على لائحة مفصلة لتلاميذ ابن رشد، وهي مستخرجة من كتب التراجم وغيرها، وقد أشارت إلى بعض تأثيرات أبي الوليد في عدد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه. وكان من رأيي أنّ حركة الاسترداد هي من أسباب ضياع جزء من تراثه، وضعف تأثيره بين بني قومه، وهذه نقطة غفل عنها الذين تكلموا في هذا الموضوع.

11- ويمكن القول بإجمال، إنّ هذه السيرة تبرز تواصل ابن رشد مع معاصريه وتواصلهم معه.¹¹

في هذه الورقة، التي نرجو أن نتوفق فيها، سنقف عند أربع نقط محورية في الكتاب، ولا ندّعي الإحاطة فيها ولا الارتقاء إلى مقام الجهد الذي بذل من قبل المؤلف.

يعيد بن شريفة في القسم المعنون بتعريفات إخراج وثائق تؤرخ لحياة ابن رشد أو للتعريف به، وهكذا يضعنا منذ البداية أمام المواد التي سيشغل عليها في كلّ الكتاب. يجد القارئ تقديماً لنصوص من التكملة لابن الأبار؛ ومن المغرب لابن سعيد المغربي؛ ومن صلة الصلة لأحمد ابن الزبير؛ ونصوصاً من الذيل والتكملة. وفي هذا السياق، وجب أن نشير إلى أنّ القارئ سيجد الترجمة كاملة لابن رشد كما وردت في الذيل والتكملة،

¹⁰ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 324

¹¹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 324

بعد أن كان إرنست رينان قد نشرها منقوصة. وعموماً، فهذه النصوص تقدّم لنا نبذاً عن حياة ابن رشد وسيرته واهتماماته وتدرّيسه وكتبه، كما تقدّم لنا روايات عن أسباب محنته.

أمّا المواد التي وضعها ابن شريفة ملحقات في نهاية الكتاب، فهي إمّا عبارة عن وثائق تعرف وتخرج لأول مرّة إلى الناس، وإمّا معالجة عمودية لبعض الموضوعات التي كان تعرّض لها في ثنايا الكتاب. وفي الحالتين معاً، فهي تلقي الكثير من الأضواء على شخصية ابن رشد وعلاقاته بمحيطه. من بين الوثائق المهمة حين نشر الكتاب إخراج لبيباجتي شرحي ابن رشد وتلميذه ابن طملوس على أرجوزة ابن سينا في الطب¹² وإذا كان الشرحان يظهران الحفاوة الكبيرة التي استقبل بها النظر في الغرب الإسلامي نص أرجوزة ابن سينا، فإنّ النص الثاني، وهو شرح ابن طملوس، يكشف عن طبيعة العلاقة العميقة التي كانت تجمع ابن طملوس بالتلميذ بشيخه ابن رشد؛ إذ فضلاً عن تعبير ابن طملوس عن تقديره الكبير لأبي الوليد (حيث يرد في صدر شرح الأرجوزة الطبية لابن سينا: "رأس الحكماء وفاضل الحكماء والشيخ الفقيه الأجل القاضي أبي الوليد محمد بن رشد رضي الله عنه.") يخلص ابن شريفة إلى القول ببناء على بينات من النص، إنّ ابن طملوس قد شرح النص بإيعاز أو بتحرك من ابن رشد¹³ وإلى ذلك، فقد تضمن الملحق أيضاً شجرة جنالوجية لآل ابن رشد وترجمة لبعض أعلامها، وقد تضمنت الشجرة ثمانية عشر علماً ابتداء من الجد الأعلى رشد وانتهاء إلى عبد الرحمن آخر المعروفين من الأسرة الرشدية¹⁴.

* ابن رشد وابن تومرت، أو كيف دخل ابن رشد في الأمر العزيز؟

علاقة ابن رشد بالمهدي بن تومرت وبعقيدته وبال دعوة الموحدية عامة من الموضوعات التي شغلت مؤرخي الدولة الموحدية كما شغلت مؤرخي فلسفة ابن رشد. وفي هذا السياق، يحاول ابن شريفة إعادة ترتيب الوثائق والأحداث. لكنّ الصعوبة الحقيقية التي يمكن أن تواجه كل دارس للموضوع هي مسألة التواريخ. فباستثناء تاريخي الولادة والوفاة، تظلّ كتب التراجم فقيرة بخصوص الحياة الطويلة والمتشعبة التي عاشها ابن رشد. فقد أغفل أصحاب كتب التراجم تواريخ مراحل مهمة من حياة ابن رشد كسنوات وظائفه مثلاً. من أجل

¹² - شرح ابن طملوس ينتظر التحقيق والنشر، فيما أخرج عمار الطالبي شرح ابن رشد انظر: شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا في الطب (الجزائر: شركة دار الأمة، 2011) وهناك نشرة إسبانية إلكترونية للشرح نفسه، انظر:

Cordero, Jaime Coullaut. Vallina, Emiliano Fernández. Averroes, *Avicennae Cantica: texto árabe, versión latina y traducción española* (Salamanca: Ediciones Universidad de Salamanca, 2010).

¹³ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 233

¹⁴ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص ص 316، 322، 316، هـ.

تغطية هذا النقص يعود بن شريفة إلى نصوص ابن رشد، حيث ذكر بنفسه بعض التواريخ أو نصّ في آخرها على تواريخ الفراغ من تأليفها.

يحصي بن شريفة عدداً من النظائر الذين سار عوا إلى الالتحاق بالدعوة الموحدية (الأمر العزيز)، ومنهم: أبو الحسن بن الإشبيلي، أبو محمد عبد الله بن محمد المالقي، أبو بكر محمد بن ميمون العبدي، ابن مضاء، أبو عبد الرحمن بن طاهر المرسي، أخيل بن إدريس الرندي، ابن طفيل، أبو عبد الله محمد بن عميرة، أبو الحسن عبد الملك بن عياش، أبو الحسن علي بن هردوس.¹⁵ ويعلق بن شريفة: "ونحن نقدر أنّ الدوافع التي حدث هؤلاء وغيرهم إلى الإقبال على الموحدين لم تكن كلها رغبة فيهم، وإنّما كان بعضها تقرّباً إليهم لنيل مكاسب منهم، وكان بعضها الآخر مداراة لهم وتقديراً لما قد ينشأ عن التأخر عن نصرتهم، ولاسيّما أنّ بعض هؤلاء المذكورين خدموا الدولة السابقة".¹⁶ هذه الملاحظة تنسحب على ابن رشد إلى حد بعيد. يقول: "وابن رشد الذي خدم جده ووالده دولة المرابطين كان أحوج من غيره إلى الانخراط في النظام الجديد، وما إن وصل الموحدون إلى قرطبة في سنة 543هـ حتى فكّر وهو في الثالثة والعشرين في الدخول في الأمر العزيز، ولو وصلت إلينا رسالته التي كتبها في هذا الموضوع لعرفنا ظروف ذلك وكيفيته، ولكننا نحسب أنه ربما كان ضمن وفد قرطبة الذي وصل مع وفد إشبيلية إلى مدينة سلا في أول سنة 546".¹⁷ فما دام يظهر من كتاب **تلخيص السماء والعالم** أنّ ابن رشد كان بمراكش عام 548، فإنه قد يفهم من هذا أنّه كان ضمن الوفد القرطبي على عبد المؤمن عام 546هـ. ولعل وجود ابن رشد بجبل درن يقترب بوجود عبد المؤمن في تينمل لزيارة قبر المهدي.¹⁸

يعرف المؤرخون أنّ عبد المؤمن بعد أن استولى على مدينة مراكش قرّر تكوين أنصار متشبعين بعقيدة المهدي وفكره، فاستدعى مجموعة من صغار السن من أبناء إشبيلية وقرطبة وتلمسان وفاس فانتخبوا من النجباء الحفاظ من كل بلد، ووصلوا إلى مراكش صحبة أساتذتهم. ومن بين هؤلاء الأساتذة الذين سمّتهم الحوليات: الأستاذ أبو الحسن نجبة والأستاذ أبو بكر الحصار؛ وهذان الشيخان الإشبيليان من طبقة أبي الوليد. لكن السؤال الذي يطرحه بن شريفة ويمكن أن يطرح في هذا السياق، هل كان ابن رشد من الحفاظ الذين تحدثت عنهم هذه الأخبار؟

¹⁵ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص ص 45- 46

¹⁶ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 46

¹⁷ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 46

¹⁸ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص ص 51- 52

لعل الجواب عن هذا السؤال يوجد في عمله المفقود: **مقالة في كيفية دخوله في الأمر العزيز وتعلمه فيه** **ما فصل من علم المهدي**، وهو من المقالات التي نسبها ابن عبد الملك لابن رشد، كما أنّ هناك مقالة أخرى مفقودة هي **شرح الحمرانية**، وهي كما يظهر من العنوان شرح لأحد نصوص ابن تومرت في العقيدة. ولسنا ندري هل ألفه ابن رشد من تلقاء نفسه أو أنه كلف به. لكن ممّا لا شك فيه أنّ ابن رشد قد قرأ أثناء إقامته في مراكش بين 546 و548 أعمال ابن تومرت؛ ولكن لا يُعلم متى ألف هذا الشرح.

وفي هذا السياق، يمدّ بن شريفة عموم القراء بوثيقة في غاية الأهمية، وهي مقطع من **شرح الحمرانية**. يقول فيها ابن رشد: "وأما مرتبة جميع المؤمنين في المتشابه فهم الذين لا يشعرون بما ورد في الشرع منه، لقوة إيمانهم، ولعلمهم بأنه من عند ربهم، وهم الذين واطبوا على الوظائف الشرعية والتزموا تعظيم الحقوق الإسلامية وسلوكوا على الطريقة الحنفية السمحة، وإليهم الإشارة بقوله تبارك وتعالى: "ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى". صدق الله العظيم، وفي الحديث أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أكثر أهل الجنة البله، وليس بلههم في الخير وإنما بلههم في الشر لا يعرفونه، وفي ذلك أنشدوا:

ولقد رأيت البله قد بلغوا المدى ... وتجاوزوه وازدروا بأولي النهي

ولما علم الإمام المهدي أنّ في الطريقة الجمهورية الاحتياط والسلامة من كلّ عيب، والنجاة من كلّ تشويش وفتنة، وخاف من الترددات النفسية والخواطر التشبيهية، وعلم أنّ علم المتشابه من علم الخواص أهل الاختصاص، وعلم أنّه لا ينبغي أن يتعرّض لتأويل المتشابه إلا راسخ في العلم، سكت عن مرتبة الراسخين وجاء بكلام مجمل بديع يشير به إلى الانكفاف عن تأويل المتشابه، وهو طريق السلامة وكان ذلك منه - رضي الله عنه - والله أعلم، خوفاً على جمهور المؤمنين أن يسبق إلى أحدهم الخطأ في معتقده بتشبيه أو تعطيل، أو بما لا يليق بالباري سبحانه أو بإبطال الآيات والأخبار رأساً. فقال رضي الله عنه: وما ورد من المتشابهات التي توهم التشبيه والتكليف إلى آخر كلامه رضي الله عنه، وإلى ما ذهب الإمام المهدي رضي الله عنه من الانكفاف عن تأويل المتشابه ذهب جمهور السلف الصالح من هذه الأمة، وهو المجدّد لما درس من الكتاب.¹⁹

ويعتقد بن شريفة أنّ **شرح الحمرانية** كان مقدّمة لما تلاه من مثل كتاب **فصل المقال** وكتاب **الكشف عن مناهج الأدلة**. لكن من المسائل التي يمكن أن تطرح بخصوص علاقة هذا الشرح بكتابي **الفصل والكشف** هو مسألة تاريخ التأليف. فاحتمال أن يكون الشرح مقدّمة للكتابين قد يجعل مسألة تاريخ تأليفه تعود إلى فترة قريبة من فترة كتابة **الفصل والكشف**. ومهما يكن، فإنّ الفقرة من **شرح الحمرانية** تتوافق إلى حد بعيد مع نسخة

¹⁹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص ص 47-48

الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة المحفوظة بخزانة كوبرولو. ولذلك، فإنّ إخراج هذه النصوص الثلاثة (شرح الحمرانية، والدخول في الأمر العزيز، والكشف) من شأنه أن يلقي أضواء جديدة على علاقة ابن رشد بعقيدة الموحدين وبابن تومرت، ومن شأنه أن يحسم في بعض التقاطبات على مستوى التأويلات بخصوص هذا الموضوع.

* حول محنة ابن رشد

يقول بن شريفة عن الخصوصية السابعة لسيرته إنّها "تقدّم تفسيراً تفصيلياً للمحنة غنياً بالمعطيات المختلفة التي تبين خفيها وتحدد حجمها".²⁰ وشهرة محنة ابن رشد قد تعدّت دائرة المهتمين إلى عموم القراء والناس.

وفي الواقع، إنّ محنة ابن رشد هي أبرز حدث في حياته من الناحية التاريخية والفكرية العامّة، ولهذا سجّلتها الحوليات التاريخية وفصل القول فيها مؤرخو ذلك العصر. فقد ذكرها أبو الحجاج يوسف بن غمر الإشبيلي، وابن أبي أصيبعة وعبد الواحد المراكشي وأبو مروان الباجي وابن عبد الملك المراكشي وابن عذاري وآخرون. انطلاقاً من نصوص هؤلاء يحاول محمد بن شريفة أن يقف على طبيعة هذه المحنة ومداها من جهة، وأن يقدّم من جهة ثانية مجموعة من الأسباب التي قد تكون وراء المحنة التي عاشها أبو الوليد آخر أيام حياته.

1. الأسباب

يعرف الدارسون كمّ الدراسات التي دبّجت في الموضوع، وأنّه لا وجود لرأي نهائي بخصوص موضوع أسباب محنة ابن رشد أو نكبته. لذلك، فقد وضعنا كتاب ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية أمام مجموعة من الأسباب مراجعاً بعضها ومشككاً فيه ومصححاً للبعض الآخر مؤكداً عليه. ولذلك أيضاً، فقد انبرى بن شريفة إلى مدّنا بالوثائق التي تركز على عناصر المحاسدة والمنافسة والمجاورة، على الرغم من أنّه يعتبرها عناصر إلى جانب أخرى. يقول بن شريفة: "إنّ المنافسات والخصومات بين الأعلام في ذلك العصر كانت من أسباب محنة ابن رشد".²¹ وفي هذا السياق تحصل الإشارة إلى المحاسدات والمنافسات المعلنة وغير المعلنة بين ابن رشد ونظار الأندلس من فقهاء ومتكلمين وقضاة وغيرهم. فقد كانت هناك منابذة ومهاجرة ومنافرة طويلة الأمد بين أسرة بني ربيع الأشعري وأسرة ابن رشد، وربما ذلك بسبب من تطلع بني ربيع إلى منصب القضاء في

²⁰ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 324

²¹ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 62

قرطبة، والذي احتكره آل ابن رشد لمدة طويلة. كما كانت هناك "منافسة واضحة"²² بين ابن رشد وأبي بكر بن زهر؛ لكن لا يتّضح من الكتاب هل كان أبو بكر بن زهر هذا أحد الكائدين لابن رشد أم أحد الذين سعوا عند السلطان إلى إطلاق سراحه والعفو عنه²³ أو هما معاً.

العامل السيكولوجي حاضر أيضاً في المحنة، ونعني به أنّ المنصور لم يكن يطبق طريقة مخاطبة ابن رشد له. لكنّ بن شريفة متردد في الكتاب بخصوصه، ففي الوقت الذي يصادر فيه على الرواية التاريخية الشهيرة التي تقول: "إنّ المنصور ما كان يقبل أن يخاطب بتسمع يا أخي أو بملك البربر"،²⁴ وبين التشكيك فيها انطلاقاً من عادة ابن رشد في الحفاظ على التقاليد المرعية في مخاطبة الأمراء والسلطان، كما تشهد بذلك بعض كتاباته من قبيل شرح أرجوزة ابن سينا في الطب المشار إليها.²⁵

يمكن القول أيضاً، إنّ كتابات ابن رشد قد جرّت عليه خصومات وعداءات من عدّة جهات؛ إذ يكفي المرء أن يطالع بداية المجتهد ونهاية المقتصد والضروري في أصول الفقه ليقف على كمّ النقد الذي يوجّهه ابن رشد لفقهاء عصره مباشرة، وخاصة فقهاء فروع المالكية، الذين شعروا أنّهم مهدّدون لا في سلطتهم فقط، وإنّما في مصادر رزقهم. تماماً كما يمكن أن يقف في الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وفي فصل المقال وفي تهافت التهافت عن كمّ القدح الذي يكيّله ابن رشد لعلماء الكلام الأشعرية خاصة. ومن ثمّ، فمن الطبيعي أن تكون هناك ردود فعل وكتابات ومكائد ضدّ ابن رشد. وقد ردّ فعلاً بعض النظّار الأشاعرة بكتابات من قبيل كتاب تحقيق الأدلة في عقائد الملة ودفع الشبه المضلة والأقوال المضمحلة بالحكمة البالغة والحجة الدامغة لصاحبه أبي عامر يحيى بن أبي الحسين بن الربيع من أسرة الأشعريين المذكورة أعلاه. ومن الواضح أنّ الكتاب ردّاً على كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد. أمّا كتاب ابن رشد الضروري في السياسة، فيمكن للمرء أن يقف فيه على بعض النقد الموجّه لنظام الحكم الموحد على زمنه، "مع أنّ الكتاب مهدي إلى يعقوب المنصور".²⁶

مجل القول: "إنّ أسباب محنة ابن رشد متعددة، فبعضها اجتماعي يرجع إلى التنافس بين الأسر والتحاسد بين الأفراد، وبعضها الآخر ديني يتعلق بالاختلاف المذهبي والعقدي وبعضها الآخر سياسي".²⁷ لكنّ بن شريفة

²² - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 62

²³ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 215

²⁴ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 63

²⁵ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 305

²⁶ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 74

²⁷ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 74

يبدو غير مقتنع بكلّ هذه الأسباب، لذلك نجده يشير دون تفصيل إلى عامل حاسم في نظرنا. ففي غياب المؤسسات في القرون الوسطى الإسلامية حيث شخص الخليفة أو بالأحرى مزاجه وميوله هي الفاعل المركزي وربما الوحيد، ومن هذه الجهة، فـ "الواقع أنّ ابن رشد كان ضحية عصر المنصور وسياسته المتقلبة".²⁸ وقد عرف عنه أنّه امتحن الفقهاء وعفا عنهم، كما امتحن الفلاسفة فرجع عن ذلك، وامتحن الصوفية، وقيل إنّهُ انقلب متصوّفاً في آخر أيامه.

2. طبيعة المحنة ومداها

أحد أهمّ الأحكام التي يودّ بن شريفة مراجعتها في الكتاب هو الانسياق إلى إقامة مشابهاة بين محنة ابن رشد وبين ما حصل لبعض الفلاسفة والعلماء في أوروبا. يقول: "إنّ الدارسين ولاسيما المحدثين قد بالغوا في الكلام على هذه المحنة ولم يتبنّوا طبيعتها، وحسبوا من قبيل ما وقع لبعض رجال العلم والفكر في أوروبا خلال القرون الوسطى"،²⁹ كما هو الشأن بالنسبة لجيودانو برونو أو غاليليو غاليلي.

يحاول بن شريفة تنسيب الهالة التي أحيطت بمحنة ابن رشد من جهتين: أولاً من طريق القول إنّها لم تطل أباً الوليد وحده، وإنّما أيضاً مجموعة من النظائر الذي كانوا لا يتعاطون بالضرورة لعلوم الأوائل، إذ كان بينهم الأصولي والفقيه والشاعر.³⁰ وثانياً من طريق القول إنّ الأمر يتعلق بمحنة مؤقتة؛ أي أنّها كانت "ضرورة عابرة"³¹ أو "أمراً ظرفياً".³² ويبدو أنّ هذه هي الأطروحة الأساسية لمحمد بن شريفة بخصوص موضوع محنة ابن رشد. وفي هذا السياق يؤكد: "أنّ محنة ابن رشد اقتصرّت تقريباً على محاولة إثارة الرأي العام ضده".³³ و"عندما ينظر الباحث في أمر هذه المحنة يجد أنّها كانت أشبه بتمثيلية من بعض الوجوه، وكأنّما اضطر إليها المنصور لإرضاء العامة مؤقتاً".³⁴ ولعلّ تراجع المنصور هو أكبر دليل على أنّ المحنة كانت أمراً ظرفياً، إذ أنّه بعد "وصوله إلى مراكز نزع عن ذلك كله وجنح إلى تعلم الفلسفة، وأرسل يستدعي أباً الوليد من الأندلس للإحسان إليه والعفو عنه".³⁵

²⁸ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 74

²⁹ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 67

³⁰ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 65

³¹ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 66

³² - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 66

³³ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 67

³⁴ - ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 66

³⁵ - المعجب، 306-307، ورد في ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص 66

* حول الامتداد الفكري لابن رشد

1. تلامذة ابن رشد

بموت ابن رشد (ت. 595 هـ/ 1198م) دُفنت الفلسفة في الغرب الإسلامي، خاصة لأنه لم يُوجد لنفسه مدرسة تحمل فكره، وانقلب عليه أبناء دينه وعصره. هذه هي الخلاصة التي قد ينتهي إليها المرء من قراءة الفصول الأولى من كتاب ابن رشد والرشدية لإنرست رينان.³⁶ وهي خلاصة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها تبعث على اليأس من تتبع آثار مدرسة رشدية عربية في الغرب الإسلامي، وهو اليأس ذاته الذي تبعث عليه قراءة الفصل المخصص لما بعد ابن رشد في كتاب دومينيك أورفوا **ابن رشد طموحات مثقف مسلم**.³⁷ ثرى كيف يمكن للمرء أن يتخلص من سلطة إنرست رينان التي رهنت الكتابات عن ابن رشد وعن تراثه إلى اليوم؟ يمكن للمرء أن يقول، بنوع من التحدي، إنَّ ما بدأ يظهر ويدرس من مخطوطات يجعل الدفاع عن رأي رينان أو التمسك به أمراً صعب القبول. ومن جهة ثانية، فقد أحصى محمد بن شريفة في كتابه هذا **ابن رشد الحفيد: سيرة وثائقية** ما يقرب من أربعين عالماً تتلمذوا على فيلسوف قرطبة.³⁸

نعتبر الفصل المخصَّص لتأثيرات ابن رشد أقوى لحظات الكتاب على الإطلاق، لأنه يضعنا أمام معطيات جديدة تراجع ما استقر من أحكام بين الدارسين منذ إنرست رينان، كما يضعنا نحن - معشر الدارسين المهتمين بتراث ابن رشد - أمام مسؤولية حقيقية، وهي مهمة تتبع مصائر نصوص هذا الكم الكبير من التلامذة الذين درسوا عن ابن رشد.

والفصل محاولة لإظهار الامتداد الطبيعي لفكر اشتغل وأنتج لأزيد من أربعين سنة، فكان من الطبيعي أن يكون الرجل قد تفاعل مع محيطه، وأن يكون قد حظي بأنواع عدّة من التلقي والاستقبال. يقول التراجم إنَّ ابن رشد درّس الفقه والأصول وعلم الكلام "وغير ذلك"، والعطف الأخير يشير إلى أنَّ أبا الوليد قد درس علوم القدماء. والتراجم أنفسهم عند حديثهم عن بعض تلامذته يذكرون أنَّهم قد صحبوا ابن رشد وأخذوا عنه علومه.

³⁶ - Cf. Ernest Renan, *Averroès et l'averroïsme. Essai historique*, 4^{ème} éd. (Paris: Calman Lévy, 1882) p. 37

³⁷ - انظر أورفو، ابن رشد طموحات مثقف مسلم (بالفرنسية)، ص 147. يورد أورفو ضمن تلامذة ابن رشد الذين أخذوا عنه علوم الفلسفة، واحداً من أبنائه وهو عبد الله، (ص 163) وابن سابق [؟] وأبو بكر بن داود (ص 164)، وعبد الكبير الغافقي (165)، وابن الفرس (166)، كما يورد اسم ابن طملوس محرفاً إلى ابن طاحلوس [؟]، ويورد تعريفه عند ابن الأبار بأنه آخر الأطباء في شرق الأندلس. ص 166. علماً أنَّ أورفو كان قد تحدث عن هذا التلميذ وذكره باسم ابن طملوس في بداية الفصل الثامن من الكتاب. ص 147. وكان الأمر يتعلّق بعلمين في اعتقاده، علماً أنَّ اسم الرجل قد ورد سليماً في استدراك على كتاب ابن الأبار. ومهما يكن الأمر، فمن المستغرب ألا يتحدّث أورفو عن ابن طملوس وكتابه المعروف بالمدخل لصناعة النطق ضمن الفصل المخصص للحديث عن تلامذة ابن رشد، أو عن شرح الأرزوزة الطبية عندما ذكر تلامذته في الطب.

³⁸ - محمد بنشريفة، ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص ص 244-232

فضلاً عن أربعة أبناء لابن رشد وحفيده، يحصي بن شريفة 34 تلميذاً لابن رشد. نذكر هنا البعض منهم فقط: (يوسف بن طملوس، أبو الحسن سهل بن مالك الغرناطي، وأبو القاسم محمد بن أحمد التجيبي المرسي، وأبو بكر بندود القرطبي، وأبو جعفر بن سابق القرطبي، وأبو عبد الله محمد بن سحنون الندرومي، وأبو موسى عيسى بن أحمد بن محمد بن نادر الأموي القرطبي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الزرهوني، وأبو القاسم عبد الرحيم بن ابراهيم الخزرجي، وأبو محمد عبد الله بن حوط الله المالقي، وأبو محمد عبد الكبير بن محمد الغافقي وآخرون...).³⁹ وإلى جانب هؤلاء الذين اشتغلوا بالعلوم الحكمية، فإنّ هناك لائحة أطول اهتمت بالعلوم الدينية والقائمة كما يقول بن شريفة: "ليست نهائية"، ولكنها تدلّ أيضاً، "على أنّ أبا الوليد أعطى العلوم الإسلامية نصيباً كبيراً من وقته، كما تدلّ على إقبال أهل العلم للأخذ عنه والتتلمذ له، وإذا كان جلّ هؤلاء قد درسوا عليه الفقه والأصول وعلم الكلام وغيرها من العلوم الأصيلة، فإنّ آخرين استفادوا منه في العلوم القديمة، وإن كان أكبر حظهم منها هو قراءة كتب أستاذهم وانتساخها وتداولها بينهم، وربما كانت لبعضهم كتابات فيها ولكنها لم تصل إلينا، وقد ذهب رينان وغيره إلى أنّ ابن رشد لم يترك أثراً في مواطنيه وأنه جهل من قبل أهل دينه تماماً، ونرى أنّ في هذا تعميماً قابلاً للمراجعة، فقد ظهرت تأثيرات ابن رشد في بعض تلاميذه كابن طملوس وابن بندود وفي تلاميذ تلاميذه كابن عميرة وحازم القرطاجني وفي طبقة أخرى جاءت بعد هؤلاء كالسجلماسي صاحب المنزع البديع والآبلي والرقوطي وابن خميس والحرالي [...] ويمكن تتبّع التأثيرات في بعض كتب المنطق والبلاغة والأصول والطب التي ألفت بعد ابن رشد وكذلك في بعض كتبه التي ظلت متداولة بين الناس".⁴⁰

لم يذهب بن شريفة في اتجاه البحث عن اتصال الفكر الغربي بابن رشد، عن طريق البحث عن تأثيرات ممكنة لفلسفة ابن رشد في فلسفة سبينوزا أو كانط على غرار ما قام به بعض الرشديين المغاربة، على خلاف ذلك حاول بن شريفة البحث لابن رشد عن امتداد فكري في مجاله الطبيعي وفي عصره وبين بني جلدته. إذ المهم ليس فقط أن نثبت وجود مدارس رشدية في الغرب الأوروبي، بل أيضاً أن نثبت أنّ ابن رشد لم يكن استثناء في سياقه، ومن ثم الإسراع إلى القول إنّ مجاله الأول لم يكن يملك المادة القابلة لاحتضان فكره. ولعله في هذا تكمن الخصوصية العاشرة لسيرته، والتي يقول عنها: "مما تتميز به هذه السيرة أنّها تشتمل على لائحة مفصلة لتلاميذ ابن رشد، وهي مستخرجة من كتب التراجم وغيرها، وقد أشرت إلى بعض تأثيرات أبي الوليد

³⁹ - محمد بنشريفة، ابن رشد الحفيد. سيرة وثائقية، ص ص 232-242

⁴⁰ - محمد بنشريفة، ابن رشد الحفيد. سيرة وثائقية، ص ص 243-244

في عدد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه، وكان من رأيي أنّ حركة الاسترداد هي من أسباب ضياع جزء من تراثه، وضعف تأثيره بين بني قومه، وهذه نقطة غفل عنها الذين تكلموا في هذا الموضوع".⁴¹

2. تلقي كتب ابن رشد

لم يكن قصد بن شريفة من تخصيص قول لنساخت النصوص المخطوطة لابن رشد كتابة فهرس لها، وإنّما مراجعة حكم درج الناس على تداوله دون فحص، ويتعلق الأمر بقصة إحراق مؤلفات ابن رشد. وتعد هذه النقطة تاسع الخصوصيات لكتابه، إذ تعالج مسألة تداول نصوص ابن رشد في عصره وبعد عصره.

معروفٌ الأمر الخلفي الموجّه إلى أبي بكر بن زهر بإحراق كتب الفلسفة، ونجد رواية ذلك في **المعجب** لعبد الواحد المراكشي وفي **عيون الأنباء** لابن أبي أصيبعة. يقول بن شريفة: "يبدو أنّ ما قيل عن إحراق مؤلفات ابن رشد ليس صحيحاً، أو أنّه لا يؤخذ على عمومته. ومما يدل على ذلك مسارد هذه المؤلفات التي ذكرت في البرنامج الذي وضعه أبو العباس يحيى حفيد أبي الوليد وفي **الذيل والتكملة** لابن عبد الملك المراكشي وفي **عيون الأنباء** لابن أبي أصيبعة نقلاً عن أبي مروان الإشبيلي. ومما يدل على ذلك النسخ الخطية الموجودة في عدد من المكتبات في الشرق والغرب، ومنها ما يرقى إلى عصر ابن رشد أو يقرب من عصره".⁴² ومن أجل تصحيح هذا الحكم، أحصى بن شريفة عدداً من نساخت مخطوطات ابن رشد، وهم إمّا من تلاميذه وأصحابه أو من تلاميذ تلاميذه. ومن هذه الأسماء: أبو موسى عيسى بن أحمد بن نادر الأموي القرطبي، وهو تلميذ لابن رشد،⁴³ وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك بن حاضر، ويُظن أنّه تلميذ لابن رشد أيضاً،⁴⁴ وعبد الكبير الغافقي، ومحمد بن علي بن عفيف وغيرهما. وهذا دليل على تداول كتب ابن رشد في عصره وبعد عصره في الأندلس وبلاد المغرب. وفي هذا "بعض ما يدفع ما قيل عن إحراق كتب ابن رشد، وذلك بالاستدلال بأسمائها المدونة في كتب التراجم ونسخها الخطية الباقية، التي كتبت في عصره أو في وقت قريب من عصره".⁴⁵ لا شك أنّ جزءاً من كتب ابن رشد قد ضاع، لكن ليس نتيجة الإحراق كما ورد في الرواية التاريخية وفهم منها، وإنّما نتيجة إخراج المسلمين من الأندلس.⁴⁶

⁴¹ - محمد بن شريفة، ابن رشد الحفيد. سيرة وثائقية، ص 324

⁴² - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 274

⁴³ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 274

⁴⁴ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 275

⁴⁵ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 324

⁴⁶ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 279

وبخصوص هذه النقطة، يمكن أن نضيف من جهتنا أنّ نصوص ابن رشد المنطقية قد ظلت حاضرة في الكتابات التي جاءت بعد ابن رشد. وهكذا فإنّ هناك وثيقة تشهد بأنّ **الضروري في المنطق** لابن رشد قد ظلّ متداولاً في مجالس التدريس، يتعلم منه دارسو المنطق إلى حدود القرن السادس عشر.⁴⁷

* ابن رشد الأديب والنحوي

على الرغم من الحدود التي رسمها بن شريفة للمجال الذي سيتحرك فيه في الكتاب، وهي أنّ الكتاب يقف عند حدود السيرة ولا يتجاوزها إلى الغوص في آثار ابن رشد، فإنّ هذا الفصل الذي عالج فيه المظاهر الأدبية في أعمال ابن رشد هو من الفصول التي خرج فيها عن حدود السيرة، ليدلي برأيه في إحدى أعوص المسائل التي تثيرها شروح ابن رشد على كتابي **الخطابة والشعر** لأرسطو. وهكذا فقد تعرّض بن شريفة للجانب الأدبي من سيرة ابن رشد قبل أن ينظر في اجتهادات ابن رشد في باب العلاقة بين القواعد الأرسطية والأمثلة العربية.

لم تكن اهتمامات ابن رشد الجد وأعماله تخرج عن مجال الفقه وفروعه، إذ كانت ثقافته فقهية خالصة، وكذلك كان والد ابن رشد الذي استند إلى مكانة والده. أمّا أبو الوليد، فقد خرج في نظر بن شريفة عن التقاليد العلمية لأسرته في أمرين كبيرين: الأمر الأول هو اشتغاله بعلم الأوائل، والأمر الثاني اتصاله بعلم العربية وآدابها.⁴⁸

وقد أشار من ترجم لابن رشد، بخصوص النقطة الثانية، إلى الجانب الأدبي من تكوينه، إلى حفظه أشعار العرب في الجاهلية والعصر العباسي وخاصة شعر أبي تمام والمتنبي، وكذلك متابعته للحركة الشعرية والأدبية والنقدية في بلده وعصره وإسهامه فيها. وفي هذا السياق، يشدّد بن شريفة على ملمح متميز من صورة ابن رشد الأدبية، وهي صلته بنوعين شعريين اخترعهما وبرع فيهما الأندلسيون وهما الموشحات والأزجال، وهو الأمر الذي لم ينتبه إليه بعض دارسي ومحقق **تلخيصي الخطابة والشعر**.⁴⁹

والحق أنّ تلخيص ابن رشد لكتابي **الشعر والخطابة** شاهدان قويان على الثقافة الأدبية الرفيعة لأبي الوليد. لكنّ قوة صنيع ابن رشد لا تكمن في هذه الثقافة وفي استثمارها من أجل الشرح، بل من أجل بلورة موقف سيكون له ما بعده في الأندلس. يقول بن شريفة: "يمكن أن نعتبر عمل بن عميرة ثاني مجهود أندلسي في سبيل

⁴⁷ - أبو جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي أشي الغرناطي الأندلسي ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي أشي (توفي 938 / 1532م)، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ص ص 201-201

⁴⁸ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 282

⁴⁹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص ص 283-292

المزاوجة بين البلاغة اليونانية والبلاغة العربية أو محاولة تطبيق الأولى على الثانية، أمّا المجهود الأندلسي الأول فهو الذي قام به ابن رشد من خلال تلخيصه لكتابي **الخطابة والشعر**، إذ أنّه أول من كسا القوانين البلاغية اليونانية في هذين الكتابين بشواهد من الشعر العربية ومن القرآن والحديث في بعض الأحيان⁵⁰.

وفي ظلّ التعارض الشديد بين الدارسين بخصوص تقويم مجهود ابن رشد هذا، بين من يرميه بالفشل (عبد الرحمن بدوي) ومن يصفه بالتميّز (محمد سليم سالم)، يقول بن شريفة: "ونحن نظن أنّ قيمة صنيع ابن رشد تكمن في أنّه فتح الباب أمام التطبيقات العربية على مبادئ تلك الصناعة النظرية. وقد تابعه في هذا الصنيع أعلام كأبي الحسن سهل بن مالك وأبي المطرف أحمد بن عميرة وحازم القرطاجني ثم ابن القوبع وابن رشيد ثم السجلماسي وابن البناء، وهم يشكلون ثلاث طبقات أو ثلاثة أجيال حاولوا أن يؤسسوا بلاغة تقتبس من اصطلاحات الأورغانون وتجتهد في تطويعها وتتوسع في تطبيقها على كلام العرب، غير أنّ جهودهم لم يكتب لها أن تتطور وتستمر وتشيع وتنتشر، كما أنّه لم يظهر من يصوغها في متن أو متون تعليمية تضمن لها السيورة، ولهذا كانت الغلبة لعبد القاهر الجرجاني والسكاكي في البلاغة"⁵¹.

مجمل القول بخصوص هذه النقطة: إنّ "ثقافة ابن رشد الأدبية لم تكن دون ثقافته الفلسفية أو الفقهية"⁵². هذا ما انتهى إليه بن شريفة في غياب نصّ أساسي كان سيقوّي بكل تأكيد من حكمه هذا، وهو **الضروري في النحو** الذي اعتبره مفقوداً في ذلك الوقت⁵³ والحق أنّه لم ينشر النص إلا بعد سنوات. وسيعود بن شريفة إلى الموضوع مباشرة بعد اطلاعه على مخطوطة الكتاب ليخرج لنا بدراسة حول "كتاب **الضروري في النحو** لابن رشد الفيلسوف". يقول في إحدى خلاصاته: "أرى أنّ محاولة ابن رشد في النحو كانت أهم من محاولة ابن مضاء التي كانت جزئية ومحدودة وسلبية أيضاً، أمّا محاولة ابن رشد فقد قدّمت بناءً جديداً متكاملًا وتقعيداً مبتكراً شاملاً. ولكنه لم يؤخذ به مع الأسف ولم يُعمل به، لأنّه يخالف ما اعتاد عليه الناس؛ وصعب على الإنسان ما لم يعود، ولعل كتاب **الضروري في النحو**، إذا نشر تكون فيه فائدة للغتنا الخالدة علاوة على فائدته في إغناء المكتبة الرشدية"⁵⁴.

⁵⁰ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 251

⁵¹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 252

⁵² - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 293

⁵³ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 292

⁵⁴ - محمد بن شريفة، "حول كتاب **الضروري في النحو** لابن رشد الفيلسوف"، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (2001/1422) (27-42) ص 16

هكذا تضعنا إشارات بن شريفة بخصوص مجهودات ابن رشد الأدبية والنحوية أمام حقيقة مُرّة، وهي أنّ أفكار ابن رشد وتلامذته في الآداب وفي النحو هذه المرّة لم يؤخذ بها، وبالمناسبة فهو الجو اليائس ذاته الذي انتهى به كتاب جمال الدين العلوي **المتن الرشدي**، لكن بخصوص أفكار ابن رشد الفلسفية.

ملاحظات:

يمكن لقارئ الكتاب أن يسجل بعض الملاحظات التي منها ما توقعه الكاتب نفسه وأشار إليه.

1. لا يعلن بن شريفة عن خصومه، لكن أهم ضحايا كتابه **ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية كتاب ابن رشد والرشدية لإرنست رينان**. فبدل أن ينشغل المؤلف بالكتابات التي صدرت في زمن قريب من زمن صدور الكتاب، فضّل الارتقاء في الزمان إلى الكتاب الذي مارس سحراً على عقول الدارسين واستقرّت أحكامه، بل تسلمت من هؤلاء الدارسين وكأنها حقائق للتدريس إلى اليوم. وهكذا، فعلى الرغم من أنّ بن شريفة يصرّح بمواطن انفصال سيرته عن باقي الكتابات التي ظهرت بمناسبة سنة ابن رشد، فإنّه لا يحاورها بقدر ما نجده يعود إلى القرن التاسع عشر ليردّ على كتاب **ابن رشد والرشدية لإرنست رينان**. ويبدو المبرر مقنعاً تماماً، مادام أنّ الأخطاء التي سقط فيه **كتاب دومينيك أورفوا** على سبيل المثال والذي ظهر سنة 1998 إنّما هي راجعة إلى متابعته إرنست رينان في بعض أحكامه دون فحص. وإذا كان يمكن التماس بعض العذر لرينان في ظل ندرة النصوص آنذاك، فإنّه لا معنى من مسايرته في أحكامه إلى اليوم. وفي جميع الأحوال فإنّه من الصعب بعد اليوم التمسك ببعض خلاصات إرنست رينان.

2. صحيح أنّ بن شريفة لم يحفل كثيراً بالكتب التي ألّفت عن سيرة ابن رشد أو عن فكره على الرغم من كثرتها وشهرة أصحابها. لكنه لا يتردد في الإشارة إلى بعض من عالج هذا الجانب أو ذاك من سيرة ابن رشد أو فكره. لذلك نجده لا يتردد في تدقيق ما ورد غامضاً وعمماً من الأحكام عند بعض الدارسين كإرنست رينان⁵⁵

⁵⁵ - يقول: "إنّ الملحق المعنون سيرة ابن رشد لابن أبي أصيبعة في كتاب رينان هو في واقع الأمر لأبي مروان الباجي، وينبغي من باب التدقيق أن ينسب إليه وليس إلى ابن أبي أصيبعة كما يرد عند بعض من كتبوا عن ابن رشد". ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 164

وعبد الرحمن بدوي⁵⁶ ومحمد الفاسي⁵⁷ وأحمد شحلان⁵⁸ والتنبيه على بعض الأخطاء التي سقط فيها البعض الآخر من قبيل دومينك أورفوا⁵⁹ وليفي بروفنسال⁶⁰.

3. ظاهرة التكرار في بعض المواضع من الكتاب هي من الأمور التي يمكن ملاحظتها. ولكن يمكن القول إنه تكرار دعت إليه اعتبارات تتعلق إما بتعدد الروايات كما قال المؤلف نفسه، وإما باختلاف زوايا المعالجة. فقد تجد فصلاً مخصصاً لمحنة ابن رشد، يعالج موقف النظائر الأندلسيين منها؛ وتجد موضعاً آخر من الكتاب يسلط ضوءاً أكبر على علاقات ابن رشد بهؤلاء النظائر واحداً واحداً.

4. الملاحظة التي يبدو لنا أنها موضع أسف حقيقي بالنسبة للمؤلف ولباقي مؤرخي الفلسفة الرشدية. هو أن المؤلف لم يتوفق في تذييل هذا العمل بنصّ شرح الحمرانية كما كان متوقعاً. يقول المؤلف: "كنا نطمح في أن نذيل هذا العمل بنص جديد لابن رشد، ولكننا ما نزال ننتظر الحصول عليه وسنشره عندما نتوصل به إن شاء الله".⁶¹

5. الملاحظة الأخيرة، وهي التي قد تبدو غير ذات موضوع بالنسبة للأجيال السابقة من الدارسين والمحققين، وتتعلق بمضامين بعض النصوص التي لا يروي المؤلف عطشنا بخصوص مصادرها وأصحابها. إذ ماذا يمكن لقارئ متعطش للمعلومة ينتمي إلى جيل السرعة والحق في المعلومة مثلي أن يفهم من عبارات من قبيل: "من مخطوط عند بعضهم" (هامش 22 ص 47) أو "من مخطوط خاص" (هـ 24، ص 48)؟.

خاتمة

يضعنا كتاب بن شريفة أمام صورة فيلسوف من التاريخ. أهم ما تتسم به هذه الصورة التي رسمها الرجل بحرفية وحذق وحب أيضاً هي ميزة الحيوية أو الحياة. فقد موضع ابن رشد في سياق حركي متفاعل مع شخصيات وأحداث حقيقية في زمنه. لقد موضع بن شريفة ابن رشد في سياق أقرب إلى الواقع، سياق يملؤه أشخاص حقيقيون يتحركون ويتفاعلون فوق جغرافيا الأندلس والمغرب على امتداد نصف قرن. فضلاً عن

⁵⁶ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 291

⁵⁷ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 161

⁵⁸ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 256

⁵⁹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 24، هـ 3؛ ص 35، 1

⁶⁰ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 17، هـ 10

⁶¹ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 6

الخلفاء والأمراء وابن طفيل وابن عربي الذين اعتدنا سماع الحديث عن علاقات ابن رشد بهم. يضعنا ابن شريفة أمام مشاهد حقيقية فيها المئات من الأشخاص الذين احتك بهم الفيلسوف ابن رشد، ناظر بعضهم وخاصم بعضهم وقضى في أمور بعضهم وعلم البعض الآخر. والفصول المعنونة بشهادات وإفادات وتأثيرات هي الفصول المعنية بهذا الكلام. وهكذا فقد تعامل ابن رشد مع بني الربيع الأشعريين وبني خروف وبني الصفار وبني زهر وابن طاهر المرسي وابن مرتين والخطيب بن حجاج وغيرهم كثير. ولعل هذا ما عناه ابن شريفة بقوله عن الخصوصية رقم 11 لسيرته "إن هذه السيرة تبرز تواصل ابن رشد مع معاصريه وتواصلهم معه".⁶²

صحيح أن أهمية الكتاب في عدد الوثائق والنصوص التي يخرجها للناس لأول مرة، وهو ما يفسر الشهرة الواسعة للكتاب بين المهتمين في العالم الغربي بالتوثيق لحياة ابن رشد ومحيطه الفكري وتلقيه، لكن قوة الكتاب تكمن في كمّ النصوص والوثائق التي استقرأت وفحصت. خلال الكتاب كله لم ينطق الرجل بتأويل قبل أن يأتي بنص يشهد له بذلك. فعلى غرار الدارسين المحققين يولي ابن شريفة في هذا الكتاب، كما في غيره، الوثيقة أهمية أكبر من الاستنتاجات والتأويلات. ومن هذه الجهة، فالرجل ليس محترفاً فقط، بل هو نموذج من أراد أن يسلك هذه الطريق. يقول في موضع آخر "إن القراءة المتأنية والمراجعة المتكررة للنصوص، تقود القارئ المتيقظ والباحث المتنبه إلى اكتشاف خباياها وإيضاح خفاياها. والذين يداومون على قراءة النصوص يخرجون دائماً بعد كل قراءة بشيء جديد".⁶³ والكتاب فيه من الجديد الشيء الكثير. وإذا اعتبرنا أن "الغرض هو تقديم أكثر ما يمكن الحصول عليه من المادة التي تتصل بسيرة أبي الوليد، ولاسيما إذا كانت مادة جديدة من شأنها أن تزيد الدارسين معرفة به"،⁶⁴ فإن الرجل قد وفى بالغرض إلى حد بعيد.

⁶² - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 324

⁶³ - محمد بن شريفة، "أبو الحجاج يوسف بن غمر مؤرخ دولة يعقوب المنصور: تعريف وتصحيح نص"، مجلة الأكاديمية، المملكة المغربية، العدد 10، سنة 1993، ص ص 83-84

⁶⁴ - ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية، ص 324



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com